

جزيرة السلام والسرور

حدث في منتصف عام ١٩٣٨ أن أرسل متحف علم النبات بمدينة أوسلو (عاصمة بلاد النرويج) بعثة علمية برياسة الدكتور أرلنج كريستوفر الى المحيط الهادى لدراسة الأحوال الاجتماعية في جزيرة تريستان دا كونا . وللك الجزيرة تاريخ طريف يشير الى الإعجاب ويدعو الى التأمل . فقديمًا لعبت السفن التجارية دورا كبيرا في حياتها الاقتصادية ، بينما كانت الحيتان تلعب دورا عجيبا في حياتها الاجتماعية في أواخر القرن المنصرم . فقد نظم الهواة من الصيادين الامريكانيين الرحلات الصيفية الممتعة اليها ، بغية التفكه بمنظر الحيتان الجميلة وهى تتقاتل وتتصارع ، أو قصد الترويح عن النفس بمطاردتها واصطيادها .

أما الان فقد مضى هذا كله . فالحيتان فنت من كثرة الصيد ، ويمت السفن أماكن أخرى . وربما يكون ذلك من بين الأسباب التى أدت الى تركيز النظام الاجتماعى لهذه الجزيرة على الأسرة كوحدة متماثلة . وقد انتظمت الأسرات جميعا فى اتحاد عام يمثله مركز رئيسى يوزع العمل على الأفراد بحسب الجنس والسن . ولكن اسم الجزيرة وحده ظل مع ذلك رمز الرياسة والقوة المقدسة .

وبمقتضى التقاليد المتبعة بين السكان يعيش كل غلام فى أسرته لا يتركها الا ليتزوج ويؤسس أسرة جديدة . ويقوم الروابط الوثيقة بين أفراد الأسرة الواحدة مقام رابطة الدم التى تنص عليها أدياننا السماوية . فكل فرد فيها له كلمة نافذة وصوت مسموع . ويقيسون على الاخوة ازواج الاخوات . اذ يطلقون على كل زوج أخت كلمة أخ للدلالة على ما له فى نفوسهم من احترام وتقدير . وليس عندنا ما هو أبلغ من هذا التعبير الروحى عن علاقات المصاهرة والنسب .

وبين المائتى شخص الذين هم كل سكان الجزيرة ، تنعدم الفروق ويخفى نظام الطبقات بمعناه المألوف عندنا . والتقسيم الوحيد الذى ألفوه وعملوا به هو تقسيم العمل بحسب نوع الجنس ودرجة السن . وفيما عدا ذلك فكل فرد سيد نفسه ورئيسها ، لا يباشر سلطته الا على أفراد عائلته . وقبل بضع سنين هبطت أرض الجزيرة بعثة انجليزية أدخلت النظام البرلمانى الذى لم يلبث أن انهار من أساسه بعد رحيلها ، وضعت سلطة الرئيس حتى أصبحت هذه الكلمة بلا معنى مفهوم . وهناك شئ آخر اعترفوا به ، وتواضعوا عليه . ومقتضاه أن من يعمل أكثر يحترم أكثر . ويمكن توضيح ذلك بأن نقول ان طبقة الفرد عندهم لا تحدد بمسئله

ولا بأيجاد عائلته . ولا بتنفيذ آباته . ولا بقوته الجذمانية . وإنما بكيفية البطاطس التي تغلها أرضه — مثلا — ولذلك فالطفل الذي يقوم بعمل رجل يحترموه كرجل . والشخص الذي ينقص محصوله — لسبب من الأسباب — كالمرض أو الشيخوخة أو ما أشبه — ينقص احترامه .

وأرض الجزيرة كلها ليست ملكا لأحد معين من الأهليين ، ولا تخضع لنظام الملكية المعروف ، وإنما هي في كل وقت ، وبلا قيد ، صديقة كل من يضربها بفأسه ليستنتب تربتها ، ومن يفعل ذلك له عليها حق هو أشبه الأشياء بحق الاستغلال ، وبما أن الأرض ملك الجميع فالها بهذا الوصف نصيب مقدر في الماشية والأغنام التي ترعى عليها وتتغذى بخيراتها . وما يقال في ذلك يشبه ما يقال في السفن الصغيرة الرشيقة التي تسابق الريح حول شواطئ الجزيرة بأجنحتها البيضاء المشرعة ، كل سفينة لعدد معين من الأفراد ، وهم يملكون ذلك ، حسب فلسفتهم الخاصة ، بأن الإنسان ضعيف بنفسه ، قوى بغيره ، وهذه حقيقة خالدة لا مرء فيها ، وبهذا كله يعطى التريستانيون المثل الأعلى الفذ على التضامن الكامل في أروع صورته وأزهى ألوانه .

وليس عجيبا إذن أن ينتقوا هذه المبادئ عن طيب خاطر ، بل يقدسونها ، ثم ينفذونها ببجذل وإرتياح ، وهي متصلة في دمائهم حتى إن الأسر ليستعين بعضها ببعض حتى في الأعمال التي يمكن الانفراد بأدائها ، بل حتى في الأعمال التي لا يجدى فيها الاشتراك أية جدوى .

أما الأخلاق والقانون فهما مرعيان الى حد لا يعلم به الشعراء والفلاسفة وجميع ذوي المثل العليا ، ولكنهما يستمدان وجودهما من نضج الوجدان الاجتماعي ، دون أن تمس الحاجة العملية الى عقاب المشرع أو سجنه ، ولأن مخالفة القانون أو الأخلاق معناها في عرف التريستانيين فقدان المخالف لمستواه الاجتماعي المكتسب . وليس عندهم ما هو أقسى من هذا العقاب الذي لم يطبق سوى مرة واحدة انتهت بانتشار المخالف غير مأسوف عليه من أحد .

ومن الأشياء التي لا يعرفها التريستانيون " الحقد ، والجريمة ، والشهرة " حتى أن بعض علماء النفس فسروا ذلك بأن التريستانيين تنقصهم الغريزة الآدمية المشهورة ، غريزة حب الظهور ، والولع بالتفوق على الآخرين ، وهم لذلك أرق الناس وأنبههم على الإطلاق .

وبعد ، هل يمكن أن يوجد في أية بقعة من بقاع الأرض جميعا ما يوجد بالفعل في هذه الجزيرة الوادعة من حب وصفاء ، وراحة وهناء ؟